الملامح النقدية عند ابن دحية في المطرب

الاستاذ المساعد الدكتور
خالد لفته باقر
جامعة البصرة – كلية الآداب

الملخص

يعالــج هذا البحث الآراء النقدية عند ابن دحية في كتابه الموسوم بـ" المطرب من أشعار أهل المغرب" . ويحاول تسليط الضوء على القضايا التي تعامل معها الناقد ، في محاولة لتجلي وجهات نظره إزاء أشعار أهل الأندلس و المشرق التي حظيت باهتمامه ، وقد بين رأيه فيها ولكنه – في الوقت ذاته- لم يشرح المصطلحات النقدية ، لأنها خارجة عن هدفه ، ومن المسائل التي وقف عندها : قضية الفظ و المعنى ، و النقد البلاغي ، و المبالغة والغلو ، السرقات الأدبية ، التوازي و المقابلة ، و التقديم والتأخير وغيرها. وخلص البحث إلى أن لابن دَحْية آراء نقدية جديدة تفرد بها .

وقد أشار إليها في كتابه ، هذا ويعد المطرب من أهم المظان الأدبية و النقدية الأندلسية التي لا يستغني عنها الباحثون في ميدان الدراسات الأندلسية ، ذلك لأن ابن دَحْية قد ذكر مجموعة من الأدباء لم تتوفر لدينا معلومات عنهم في الكتب الأندلسية الأخرى كالذخيرة مثلاً . ومن هنا تأتي أهمية المطرب بتقديم ترجمة لهؤلاء الأدباء : كيوسف بن هارون الرمادي ، والغزال ، وابن عبد ربه وغيرهم . فضلاً عن آرائه السديدة التي وشَّح بها كتابه في المسائل التي أشرنا إليها في أعلاه .

Abstract

This research tackles the critical opinion of Ibn Dahyah in his book (Al-Mutrib min Ashaar Ahl Al-Mghrib) and tries to shed the light on all the issues which the critic deals with in an attempt to examine his opinions in the poetry of the Andalusian and the east He clarifies his views in that kind of poetry ' but in another hand he does not interpret the critical idioms ' because it is out of his interest ' The problems that he discusses are the verbal sign and the meaning '

criticism of rhetoric' exaggeration and hyperbole as well as literary plagiarism ' He has a new critical opinions ' Al- Mutrib is the most important lierary and critical source in Al- Andalus because the author mentions great figures whom we don't have any information s about them ' except in Al- Mutrib such as ; Yusuf Ibn Haarun Al – Ramaadi ' yahya Al- Ghzaal and Ibn Abd Rabbihi.

١- اسمه ونسبه :

يُعَّد التعريف بابن دَحْية من الأمور الأساسية و الجوهرية ؛ لأنَّها تكشف لنا عن العوامل المؤثرة في تحديد الاتجاهات النقَّدية عنده ، كما تبين الملامح التي اتسم بها نقده . لقد أورد ابن خلكان اسمه ونسبه على الشكل الآتي: أبو الخطاب [١] عمر بن الحسن علي بن محمد الجُمَّيل بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن بدر بن أحمد بن دَحْية بن خليفة بن فَرْوه الكلبي المعروف بذي النسبين الأندلسي البلنسي ، و البلنسي هذه النسبة إلى بلنسية وهي مدينة في شرق الأندلس [٢] وقد اتفق مع ابن خلكان على كونه أندلسياً من بلنسية ، كل من ابن تغري بردي [٣] والمقَّري [٤] والزركلي [٥] بينما يذكره الذهبي مرة بالبلنسي وأخرى بالداني الأصل السبتي[٦] ، وقد ذهب اليافعي مذهبه في نسبته إلى دانية [٧] ، وأشار ابن الزبير في صلة الصلة إلى أنه من أهل سبته [٨].

هذا من جهة والده ، أما من جهة أمه، فقد أورد ابن خلكان نسبها قائلاً: "هي أمة الرحمن بنت أبي عبدالله بن أبي البسَّام موسى بن عبدالله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب" ، ولهذا كان يكتب بخطه (ذو النسبين دحية والحسين) ، وكان يكتب وأيضاً (سبط أبي البسَّام) إشارة إلى ذلك . [٩]

وهكذا فقد رفع ابن دحية نسبه إلى الصحابي المعروف دحية شبيه جبريل [١٠] كما أشار إلى هذا في عينيته التي مدح بها السلطان الكامل [١١] :

بقيتَ لعبدٍ جَدُّهُ دحيةُ الذي يُشابه جبريلٌ له ويضارعُ
وجدَّتُه الزهراءُ بنتُ محُمَّدٍ عليه السَّلامُ الدائمُ المتَتَابعُ

وقد دحض المؤرخون هذه النسبة ، ونفوها عنه ، وأكَّدوا بطلانها ، كما استندوا في دعواهم على النص الشعري الذي أنشده ابن عُنين (ت٦٣٠ هـ) في هجاء ابن دحية [١٢] .

دحيةُ لـمْ يعُقِبْ فكم تَنْتَمـــي إليه بالبُهتانِ والإفْـــكِ
ما صحَّ عندَ الناسِ فيهِ سِوى أنَّك من كَلْبٍ بلا شـــكِّ

لقد كان الذهبي يشكُّ في هذا النسب لعدة وجوه إضافةً إلى ما ذكر،أحدها : أنَّ دحية لم يُعْقبْ . الثاني : إنَّ على هؤلاء ملامح البربرية ، ثالثاً : بتقدير وجود ذلك فقد سقط منه آباءٌ . فلا يصحُّ أنْ يكون بينه وبينه عشرة أنفس [١٣] ، وليس صحيحاً ما ذهب إليه محققو المطرب من نسبة هذه الآراء إلى ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) في لسان الميزان ، وكان من الأجدر أنْ تنسب إلى الذهبي إذ أورد ذكره ذلك في ميزان الاعتدال [١٤] ، لأنَّه أسبق زمناً منه ، حيث كانت وفاته سنة (٧٤٨ هـ) ، وأشار إلى بطلان هذه النسبة العماد الحنبلي في شذرات الذهب [١٥] ، وقد أورد الزِّركلي في الأعلام آراء القدماء حيث صرَّح بأنَّهم قالوا : إنَّ دحية لم يُعْقِبْ. [١٦]

ولد في مستهل ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة [١٧] ، وتوفي في يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول ، ودفن بسفح المقطم بالقاهرة سنة (٦٣٣هـ) على غير خلاف في ذلك ، لأن جمهور المترجمين له من القدماء والمتأخرين أكَّدوا ذلك ، ولم يشذ عنهم إلا ابن الزبير في صلة الصلة ، حيث جعل وفاته سنة (٦٤٠هـ) [١٨] ويبدو أنَّه غير متيقَّن منها .

٢ـ ثقافتــه :

لعلَّ أهمَّ ما يلفت النظر في أمر ثقافته هو تباين آراء العلماء حولها ، فمنهم من ينسبه إلى الإفك والكذب ، ومع ذلك فقد أقرُّوا له سعة ثقافته وشهرته وتبحره في العلوم ، فنقل العماد الحنبلي ما قاله ابن شهبة في تاريخ الإسلام أنَّه : كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متفنِّناً في الحديث ، و النحو ، و اللغة ، وأيام العرب ، وأشعارها ، وحصَّل ما لا حصَّل غيره من العلم ، وكان في المحدثين مثل ابن عُنين في الشعراء ، يثلب على المسلمين ويقع في أئمة الدين فترك الناس كلامه وكذَّبوه [١٩] ، وقد سبقه إلى ذلك الحافظ الضياء حين قال: لم يعجبني حالُه ، كان كثير الوقيعة في الأئمة ، ثم قال: إنَّ مشايخ المغرب كتبوا جرحه وتضعيفه ، كما طعن به ابن واصل قائلاً: كان ابن دحية مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير متهماً بالمجازفة في النقل ..... وقال ابن نقطه: كان موصوفاً بالمعرفة و الفضل إلاَّ أنَّه كان يدعي أشياء لا حقيقة لها [٢٠].

فضلاً عن ذلك فقد أكّد ابن خلكان في وفيات الأعيان أنّه كان من " أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء ، متقناً لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به ، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها ، واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقي بها علماءها ومشايخها " [٢١] وقد أكد ذلك ابن الزبير حين قال : " كان معتنياً بالعلم مشاركاً في فنون منه ، مجتهداً معتنياً بالأخذ عن الشيوخ ، ذاكراً للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث و الجرح و التعديل" [٢٢] . وقد أنصفه آخرون حيث أشاروا إلى سعة ثقافته ، وحسن اطلاعه ، وكثرة حفظه ، واعتنائه بالطلب ، ومساهمته في أنواع العلوم و المعارف ، فالمقّري قال : " إنّه كان من كبار المحدثين ومن الحُفّاظ الثقات الأثبات المحصّلين ". وعلى الرغم من ذلك فقد نهل ابن دحية من معين هذا التراث الخالد: كالحديث ، و اللغة ، والأدب ، وغيرها من المعارف ، وأفاد بعلمه ، فقد تلمذ له العديد من العلماء ، ومما يلحظ عنه أنه أينما نزل يعكف على الأخذ عن الشيوخ سواء أكانوا في الأندلس أم في المغرب ومصر أم في المشرق؟ وجل هؤلاء العلماء ممن أخذ عنهم هم من الثقات المتبحرين ، و في الوقت ذاته ، كان الناس يأخذون عنه ، ويلتقطون منه شذوره ، ويقتبسون من علمه ، وفوق ذلك فهو عالم بالأدب ، و اللغة ، والحديث ، وليس أدلُّ على ذلك ما في كتبه من شروح وتعاليق وآراء كشفت عن سعة ثقافته ، وكثرة إلمامه بالتراث ، إلاّ أنَّ بعض القدماء و المتأخرين قد غضُّوا من شأنه . وعلى الرغم من كثرة المصادر القديمة التي تناولت هذا الأديب ، إلاّ أنَّها أهملت جانباً مهماً من جوانب ثقافته الأدبية ، ذلك هو محور النقد عنده الذي يعرب عنه ما في المطرب . وإذا شاء للدراسات القديمة أن تتحامى نقده ، فإنَّ المراجع الحديثة هي الأخرى قد صمتت عنه ، ولم تتعرض له بشيْ ، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتتفادى النقص ، وتسد الفراغ ، وذلك بمعالجة آرائه النقدية التي يكتظ بها كتابه سواء أكانت تعليقاً وشرحاً أو تفسيراً وبياناً لقضية مهمة من قضايا النقد الكبرى؟ كمشكلة السرقات الأدبية ، واللفظ والمعنى ، و المسائل البيانية ، و المباحث اللغوية والنحوية ، ثمَّ تحقيق النص الشعري ، وغيرها من الأمور الصغيرة الأخرى .

ومع أن هذه القضايا قد لا تشكل في مجملها نظرية عنده إلاّ أنَّها تكشف في الوقت ذاته عن سعة ثقافته ، وإلمامه بالتراث ، وتتجلّى فيها مقدرته على الخوض في مثل هذه القضايا ، كما أنَّ هذه الآراء تمثّل تجسيداً لذوقه الأدبي وحسّه المرهف ، واتجاهه نحو كلِّ ما هو أندلسي ، وتعرب عن وجهة نظره النقدية التي تفرَّد بها ، كما سيأتي الحديث عنها فيما بعد ، وللتدليل على عمق ثقافته نذكر ما خلف لنا من

مؤلفات ، أوردها محققو المطرب في المقدمة ص(د) وما بعدها ، وهي بعد المطرب الذي ستتناوله هذه الدراسة ، مرتبة على حروف الهجاء .

١. الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات .
٢. الابتهاج في المعراج .
٣. استيفاء المطلوب في تدبير الحروب .
٤. الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين .
٥. أنوار المَشرقين في تنقيح الصحيحين المُشرقين .
٦. تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم .
٧. التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق .
٨. تعليق على شهاب الأخبار في الحكم والأمثال و الآداب من الأحاديث النبوية للقضاعي .
٩. تنبيه البصائر في أسماء أمِّ الكبائر .
١٠. التنوير في مولد السراج المنير .
١١. سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب .
١٢. شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .
١٣. الصارم الهندي في الرَّدِّ على الكندي .
١٤. عصمة الأنبياء .
١٥. العلم المشهور في فضائل الأيام و الشهور .
١٦. مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين .
١٧. المستوفى في أسماء المصطفى .
١٨. مصنف في رجال الحديث .
١٩. النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس .
٢٠. نهاية السول في خصائص الرسول .
٢١. وهج الجمر في تحريم الخمر .
٢٢. خطب .

لقد اشتهر ابن دَحْية بكتابة الموسوم بـ(المطرب من أشعار أهل المغرب) وهو مؤلف يضمُّ بين دفتيه (٢٤٠) صفحة مثقلة بالأسانيد التي لو حذفت منه ؛ لتضاءل حجمه إلى النصف تقريباً ، والمؤلّف لم يبوبه تبويباً معيناً كما جرت عادة المؤلّفين وأصحاب التراجم ، وقد أفصح عن نيته حيث يقول: " إلاَّ أنَّي لمْ أقصد جمع ذلك على الترتيب ، ولا سلكت فيه مسلكي المعهود في التبويب والتهذيب بل استرسلت فيه مع الخاطر على ما يجود به ويسمح ، ويعنُّ له ويسنح " (٢٣) .

ومما يثير الانتباه ويلفت النظر ، أنَّ ابن دحية لم يشغل نفسه كثيراً بالمحاسن البديعية ، وألوان البيان ، في تراجمه التي أوردها لأهل الأندلس والمغرب وصقلية ، وقد اختلف فيها من حيث الصياغة عن ابن بسام في (الذخيرة) وابن خاقان في (قلائد العقيان) ، فضلاً عن ذلك فهو يكثر من الاستطراد والشرح والتعليق على المفردات الواردة في النص الشعري ، إذ تعدُّ هذه القضايا من الأمور الجوهرية في صميم عمله النقدي ، وأما ما يتعلق بعباراته فهي تتأرجح بين القصر و الطول ، كما أنه يكثر – في الوقت ذاته- الاقتباس من القرآن الكريم .

ويتألف الكتاب من خمس وخمسين ترجمة ، تتفاوت فيما بينها من حيث الطول والقصر ، وهي موصولة بأسانيدها ، بيد أنَّ هذه ليست حالة مطردة في كتابه ، بل نجد أنَّ بعض تراجمه خالية من سند الرواية كما في ترجمة أبي محمد عبدالجبار بن أبي محمد بن حمديس الصقلي وغيرها ، على الرغم من ذلك ، فأنَّ معظم تراجمه كانت بالسند : كترجمة يوسف بن هارون الرمادي ، وترجمة محمد ابن الوزير الكبير و الطبيب النحرير أبي مروان عبد الملك بن الوزير أبي العلاء بن زهر ابن الوزير ابي مروان عبد الملك .

ولعل أهمَّ ما يتسم به كتابه هو طابعه الأدبي و النقدي ، ولكنَّه من جانب آخر لم يخله من أخبار تتعلق بالحوادث فضلاً عن ذكره لمحات من مشكل علمي الغريب و العربية، وإلى هذا يشير قائلاً : " وبالجملة، فقد نثلت في هذا المجموع كنانة محفوظاتي في المعارف الأدبية ، ولم أخله من أخاير ذخائر ما التقطت من أفواه مشايخي من مشكل علمي الغريب والعربية " (٢٤) .

ومع ذلك فقد حذا فيه حذو النقاد القدامى : كالجاحظ ، وابن بسام في انتقاله بين الجد و الهزل ، ليدفع السأم عن القارئ ، ويتحول من النثر إلى الشعر ، إلى النادرة الطريفة والخبر التاريخي ، واللمحة النقدية ، و الرأي اللغوي ، والشرح ، والتفسير، ولهذا قال : " فالناظر فيه يسرح في بساتين ، ويمرح في ميادين ، ويخرج من فنٍّ إلى فنون ، والحديث ذو شجون " (٢٥) .

هذا ويعد المطرب من أهم المظان الأندلسية ، التي لا يستغني عنها الباحثون في ميدان الدراسات الأندلسية ، ذلك لأنَّ ابن دحية قد جمع طائفة من الأدباء لم تتوفر لدينا معلومات كثيرة عنهم في المصادر التي نوَّهت بذكرهم فمثلاً: إنَّنا لم نعثر على ترجمة ليوسف بن هارون الرمادي في الذخيرة ، لا لسبب إلاَّ أنَّه خارج عن شرط هذا الديوان، وكذلك الحال مع يحيى بن حكم الغزال، وابن عبد ربه ، ومن هنا تأتي أهمية المطرب الأدبية إذ يسدُّ النقص في المعلومات عند بعض أدباء الأندلس ، فضلاً عن كونه مصدراً مهماً من مصادر العلماء الذين اعتمدوا عليه كالمقَّري في نفح الطيب .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنَّ ابن دحية أثناء حديثة عن أدبائه ينقل لنا نصوصاً من مصادر سابقة دون أنْ يشير إليها بعلامة تميز كلامه من غيره . مثل ، قال : أو قلت وغيرها ، كما فعل ابن بسام أثناء نقله كلام ابن حيَّان ، وقد اقتفى ابن سعيد أثره حين يأخذ عن الذخيرة و القلائد ، ومن أوضح النماذج على ذلك ما نقله من الذخيرة في ترجمة (ولادة بنت المستكفي) [٢٦] ، ومما أخذه عن ابن خاقان قوله في ترجمة ابن زيدون جاء فيها : "فمن قصائده- يعني ابن زيدون – التي ضربت في الإبداع بسهم ، وطلعت من كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم"[٢٧] فضلاً عن ذلك فقد تعرض للقضايا النقدية الآتية :

قضية اللفظ و المعنى:

لقد فضَّل ابن دحية في ثنايا المطرب كثيراً من المعاني المبتكرة ، و الألفاظ الحسنة ، ويقدم في بعض الأحيان تعليلاً لهذا التفضيل ، ألا وهو إصابة الغرض ، وابتداع المعنى الطريف ، وفي البعض الآخر لا يذكر لنا سبب هذا التفضيل ، فضلاً عن ذلك ، فهو لم يقسم الشعر بحسب جودته أو رداءة اللفظ و المعنى ، كما فعل ابن قتيبة [٢٨] ، كما أنَّنا لم نلمس في كتابه شرحاً وافياً لهذه القضية كما بين المبرد في الكامل [٢٩] ، ولم نعثر أيضاً على ذلك التصور الذي رسمه ابن طباطبا في عيار الشعر [٣٠] للعلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى ، والتي جسَّدها ابن رشيق في العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده [٣١] ، ولم يعالجها معالجة النقاد المتأخرين كالجرجاني .

ومهما يكن من أمر ، فأنَّ ابن دحية في حديثة عن اللفظ والمعنى يصدر عن ذوق خاص فرضته عليه طبيعة ثقافته الأدبية و اللغوية ، فضلاً عن سيره في ركاب النقد القديم سواء أكان في المشرق أم في الأندلس ؟

ولو تأمَّلنا المطرب لوجدنا فيه نماذج نقدية كثيرة تدور في فلك العملية النقدية القديمة التي تستند على استحسان هذا الفظ أو ذلك المعنى من دون تعليل لهذا الاستحسان سوى لإضافة المعنى وترتيب الألفاظ . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان ابن دحية مهتماً بالمعنى الحسن و اللفظ المستحسن ، دون تفضيل أحدهما على الأخر، كما فعل الجاحظ ومن بعده العسكري ، الذي ردَّد فكرته في كتابة الصناعتين ، وهي فكرة المعاني المطروحة في الطريق (٣٢) ، فهما من أنصار اللفظ ، يتعصبان له ، ويغاليان في تفضيله ، بيد أنَّنا لم نعثر على شيء شبيه بذلك عند ابن دحية ، غير أنَّه يكثر من الإطراء على المعاني المبتكرة أو المستحسنة أنَّه يكثر من الإطراء على المعاني المبتكرة أو أكثر من إشادته بالألفاظ .

ولابُدَّ هنا من أنْ نقف عند بعض النماذج الشعرية التي علَّق عليها ابن دحية مستحسناً ألفاظها ومعانيها ؛ لاشتمالها على لفظ مرتب ، واستخدام الشاعر لألوان البديع ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قول المعتمد بن عباد ، وقد ناولته بعض نسائه كأس بلَّور مترعة شراباً ، ولمع البرق فارتاعت ، فقال بديهة :

ريعتْ من البرق وفي كفِّها برقٌ من القهوةِ لمّاعُ
ياليتَ شعري وهي شمسُ الضحى كيف من الأنوار ترتاعُ

وأمر الأديب المصيب أبا محمد عبد الجليل بن وهبون بإجازة البيت الأول ، فقال :

ولن ترى أعجب مـــن آنسٍ من مثل ما يُمْسِكُ يَرْتَاعُ

لقد علَّق ابن دحية على ذلك بقوله : " وهذا من نوادر الخواطر ، و ليس ينكر على هذا الشاعر، فمن جودة شعره ترتيب اللفظ فيه مع جودة معانيه ، أوَّلها المطابقة بين لفظتي الأنس والارتياع ، وتشبيه لمعان البرق بلمعان الخمر" (٣٣) .

وإذا وقع تحت نظر ابن دحية معنى غريب مبتدع ، لم يسبق إليه أحد فينبِّه عليه ، ويورد له أمثلة من أشعار أهل الأندلس ، تحقيقاً لوجودهم الثقافي ، ومن غريب معانيهم ما ذكره لأبي محمد بن سارة في المدح :

ومُعَذَّرٍ رَقَتْ حواشي حُسْنِهِ فَقُلُوبُنَا وَجِدْاً عليه رقـــاقُ
لم يكْسُ عارضَهُ السوادُ وإنَّما نَفَضَتْ عليه صباغها الأحْدَاقُ

وهذا أيضا من الغريب العجيب . ومن أحسن ما رأيت فيه انفراد قائله بمعناه ولم يشركه فيه أحد سواه ، قول أبي مروان عبدالله بن سرية البلنسي :

دَبَّ العِذَارُ بخَدِّه ثم انْثَنَـــــي لمّا دَنا مِنْ لَثْمِ فيهِ الأشْنَبِ
لا غرو إنْ خُشِيَ الرَّدى في لَثْمه فالرِّيق سُمٌّ قاتِلٌ للعَقْـرب

وما أوردناه في العِذار من النظم ، هو من المعاني العقم ، وإنَّما اجتلبت هذه الأبيات صلة لأبيات السلطان عبدالرحمن، والشيء يذكر بمثله ، والأبيات هي: (٣٤)

أنظُر إلى بدرٍ وكيـ ف بدَا بصَفْحَتِهِ العِذَارُ
فكأنَّه بدرُ التَّمـــا م بدَا بهِ طرفُ السّرارُ

ومن هنا يمكن القول عن ابن دحية أنَّه يظلُّ يتابع المعنى الواحد عند أكثر من شاعر ، فيتعقبه أنَّى سمح له شعر بذلك ، ومن النماذج الأخرى التي أعجب بها لغرابة معناها ، وعدَّها من المخترع الذي لم يسبق إليه أحد ، قول الغزال:

قال لي يحيَى وصِرْ نا بَيْنَ مَوْجٍ كالجبالِ
وتولَّتْا ريـــاحٌ من دَبُورٍ وشَمَـــالِ

لقد علَّق ابن دحية على هذه الأبيات بقوله : " هذا القصيد يجول عليه رونق الانطباع ، وهو الغريب غير المستطاع ، ورأيت له في الغزل من هذا القصيد معنى انفرد باختراعه ، وأبدع ما شاء في إبداعه وهو قوله :

وسُليمى ذاتُ زُهْـدٍ في زَهيدٍ منْ وصالِ
كلَّما قلتُ صِلينـي حاسَبَتْنِي بالخَيـــالِ

وهذا اختراع عجيب ومعنى غريب ، وزاد فيه بعد ذلك فقال: (٣٥)

والكرى قد منعتـــه مقلتي أخرى الليالي
وهي أدرى فلمـــاذا دافعتني بمحـــال
أتُراني أقْتَضِيهـــا بَعْدُ شيئاً من نَـوال

يبدو ممَّا تقدم أنَّ عناية ابن دحية كانت مركزة على المعاني أكثر من اهتمامه بالألفاظ أو إشارته إليها ، وفي معرض حديثه عن المعاني لا يكاد يخرج عن حدَّ الجزالة التي نادى بها النقاد السابقون في المشرق ، مع قيامه بشرح للألفاظ الصعبة فقد علَّق على قصيدة الغزال البائية فلا سبيل إلى ذكرها هنا ، لكونها تتضمن ألفاظاً ومعاني لا يسمح الذوق بذكرها ، ونكتفي بتعليق ابن دحية عليها إذ يقول :"هذا شعر حسن الهزال ، جزل في معانيه ، دون فحش فيه ، و البهنانة الطيبة الريح، وقد قيل : هي الرخيمة المنطق ، وقيل فيها : الضحوك المداعبة . وكل هذا مما يليق بوصفها في تلك الحالة " (٣٦) .

وإذا نظم شاعران في معنى واحد ، فأنَّه يشير إلى المحسن منهما ، وإنْ كانا أندلسيين ، فيقول : وأنشدني غير واحد ، قالوا : انشدنا الوزير أبو بكر محمد بن محمد بن القصيرة من أبيات يهنيء فيها بمولود:

لم يستهلّ بُكىً ولكنْ مُنْكــِراً أنْ لم تُعدُّ له الدُّرُوعُ لَفائِفــــــا

ومن أبدع ما قيل في هذا المعنى قول الأديب أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض، وكان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسبق في الشعر والأدب (٣٧).

أصَاخَتِ الخيلُ آذاناً لصرخَتِــــهِ واهْتزَّ كلُّ هِزَبرٍ عندما عَطَســـا
تعشَّق الدَّرعَ مُذْ شُدَّتْ لفائِفُــــهُ وأبْغَضَ المهدَ لمَّا أبصرَ الفرســـا
تعلَّمَ الركضَ أيَّام المخاض بـهِ فما امتطى الخيلَ إلاَّ وهو قد فُرُسا

لم يصف ابن دحية هذه الأبيات بأكثر من قوله : بأنَّها أبدع ما قيل في معناه والناظر إليها يرى ـ لأوَّل وهلة ـ أنَّ الشاعر قد أفرط في الوصف بما يخرج عما تعارف العرب عليه ، ويمكن أنْ يدخل في باب الإغراق في رسم الصور ، وهو ما سمَّاه قدامة بالغلوِّ .

ولم تقتصر تعليقات ابن دحية النقدية على النصوص الشعرية فقط ، بل كان يرسل أحكامه حول الشعراء أنفسهم ، جرياً على عادة النقاد المشارقة والأندلسيين قبله ، وقد كان تعليقه على ترجمة ابن حمديس الصقلي شاملا لأكثر المباحث النقدية التي تعرض لها في كتابه إذ يقول فيه : " شاعر جيد السبك ، مليح العبارة ، حسن الأخذ ، لطيف التناول ، رقيق حواشي المعاني ، عذب اللفظ ... وعبر عن الأدب بأنفاسه النفسية الرفيعة ، فما يجري من قوله رقة مع الماء ، ويكاد يمتزج بالهواء ، ويأخذ بمجامع الأهواء ، قوله من قصيدة (الكامل المذال) (٣٨) .

قُمْ هَاكَهَا مِنْ كَفِّ ذاتِ الوشَاحْ وَقدْ نَعَى اللَيْلَ بَشيرُ الصبَّاحْ

إنَّ مثل هذه الحكام المقتضبة التي حبَّر بها تراجمه تشبه ما ذكره التوحيدي بشأن أدبائه ، ومن أوضح النماذج على ذلك قوله : " أمَّا السُّلامي فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنَّما يبسم عن ثغر الغمام ، خفي السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه ليطة بالقلب ، وعبث بالروح وبرد على الكبد ." (٣٩) .

ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن دحية قد خصَّ أديبات الأندلس بحديث ، نعت فيه أدبهن مثلما فعل مع ابن حمديس وغيره ، وإذ يقول في كلامه عن حفصه بنت الحاج " إنهَّا من بشرات غرناطة ، رخيمة الشعر ، رقيقة النظم و النثر" (٤٠).

وترى ابن دحية يقف موقفاً منصفاً للحقيقة ولم تنسه أندلسيته مواطن الجودة ، فإذا وجد شعراً حسناً ، يقرُّ له بالفضل ، من غير أنْ يذكر الأسباب الداعية لهذا التفضيل كعادته ، فقد علَّق على أبيات المعتمد التي كتبها إلى أبي بكر بن عمَّار :

لمَّا نَأيْتَ نَأى الكَرى عَنْ نَاظِرِي ورَدَدْتَهُ لمَّا انصَرَفْتَ عَلَيه
طَلَبَ البَشيرُ بشارَةً يُجْزَى بهَا فَوَهَبْتُ قلبي واعْتَذَرْتُ إليه

قال ابن دحية : أنا استحسن قول أبي فراس لسيف الدولة: (٤١)

نَفْسي فِدَاؤكَ بَعَثْتُ بعُهْدَتِي بيَدِ الرَّسُولِ
وَجَعَلتُ ما مَلَكَتْ يَدي صِلة المُبَشِّرِ بالقبُولِ

وقد يعلل استحسانه الشعر ، وتفضيله إيَّاه ، نظراً لإصابة الغرض وحسنه فعلق على أبيات ابن عباد بقوله :" ومن شعره الحسن ، وغرضه المستحسن" (٤٢):

ورُبَّ سَاقٍ مُهفهفٍ غَنجٍ قام ليسقي فجاء بالعَجَبِ
أبْدي لنا من لطيفِ حِكْمَتِهِ في جامدِ الماء ذائبَ الذَّهبِ

وحين تقع عينه على شعر رقيق تهش له نفسه ، ويأسر لبه ، ويملك سمعه وقلبه يبدي إعجابه به ، ولنسمع إليه يعلّق على قطعة شعرية في قوله : " ومما يمازج برقته النسيم ، امتزج الماء بالراح ، ويدخل من أبواب خروق المسامع على القلوب بلا استئذان ، فترتاح به الأرواح ، قول هذا الشاعر من أبيات :

خطرتُ علي وادي العُذيب بأدْمُعي فما جُزْتُهُ إلاَّ وأكثـــــــرُهُ دَمُ

سَرَى البرقُ من نَّعْمَـان يُخبرُ أنَّـه سَيشْقى بكم مَنْ كانَ بالأمس يَنْعَمُ

رحلتم ، فهذا الليلُ فيكم فلم يعـد إلىَّ سـواهُ فيكُمُ إذْ رحلتُـــــــمُ

وعلى الرغم من استحسانه هذه الأبيات ، إلاَّ أنَّه لم ينس ممن أخذ الشاعر بعض أبياته ، ثم يقوم كعادته بشرح المفردات الغامضة ، وتفسيرها معجباً بما فيها من مقابلة مليحة ، ومعنى بديع ، فيقول : " لقد أحسن ما شاء ، غير أنَّ قوله : خطرت على وادي العذيب .... البيت " مأخوذ من قول الشاعر ، وهو مهيار :

عَبَرْتُ على الوادي فحَرَّمْتُ ماءه وكيفَ يحلُّ الماء أكثـــره دمُ

عبرت : أي أسلت عبرتي فيه فورَّى . والمحفوظ عند أهل اللغة ، استعبر الرجل إذا بكى والذي رويناه في شعر مهيار (بكيت) . و المليح البديع من هذه القطعة قوله :

سَرى البرقُ من نَعمانَ يخبرُ أنَّهُ سَيَشْقى بكُمُ مَنْ كانَ بالأمس يَنْعَمُ

" نظراً لما فيه من صنعة البديع ، وهي مقابلة (يشقى) بـ (ينعم) . ومن مليحها قوله :

رَحَلْتمْ فهذا الليلُ فيكمْ فلم يعــد إلىَّ سَـــــواهُ فيكـــمُ إذْ رحلتـمُ

وهو من أبيات المعاني التي يسأل عنها ، ويفهم معناها من قوله : " فلم يعد إلىَّ سواه" ؛ لأنَّه لا يعود سوى الليل الماضي ، وهو الليل المستقبل ، إلاَّ بعد صبح يفصل بينهما ولا فاصل عنده بعد فرقة أحبابه ؛ لأنَّ الأيَّام جميعها عنده صارت مظلمة ؛ لبعد أحبابه ، فما دامت الفرقة مستمرة ، كانت الظلمة مستقرة"[٤٣] . وهذا القول يذكرنا بشعر ابن زيدون من قصيدته النونية المشهورة:

حالت لفقدكم أيَّامـــنا فغـــدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليـــنا

وإذا عنَّ له معنى عذب في غرض معين كالغزل مثلاً ، فينبِّه عليه خصوصاً في المقطعات ، كما في ترجمة أبي الطيِّب أحمد بن الحسين حيث يقول عنه : " إنَّه من أعيان شعراء المغرب ، الراسخين في الأدب . له مقطَّعات غزل أحسن من قطع الرياض ، وأغزل من العيون المراض [٤٤] . وهكذا يستمر في أثناء كتابه ، يورد المصطلحات الذوقية ، كما جاء في ترجمة ابن حمديس ، الذي وصفه بأنَّه شاعر جيد السبك ، وقد نعت المرواني الطليق " بأنَّه شاعر رائق الألفاظ ، رقيق المعاني ، يجاري ويبارى في الخمريات الحسن بن هاني " [٤٥] ، وقد أورد مصطلح العقم لوصف المعاني التي مرت قبل قليل .

ومن هنا يمكن أنْ يقال : إنَّ ابن دحية لم يفضل المعنى على اللفظ أو بالعكس ، ولكنه يبدو من خلال كثرة تعليقاته ، أنَّه مغرم بالمعنى البديع و اللفظ البليغ ، فإنْ عرض له معنى طريف ومبتكر، يشير إليه ، وينّبه عليه ، كما في تعليقه على أبيات ابن حبُّوس في صاحب إشبيلية :

سِرْ حلَّ حيثُ تحلُّه النَّوار وأرادَ فيكَ مُرادك الأقـــدارُ

ولنستمع إلى قوله في هذا الخصوص: ولقد أبدع في هذه الأبيات غاية الإبداع ، وهي من أبلغ ما قيل في الوداع". (٤٦)

ولقد لمسنا عند ابن دحية بعض المصطلحات النقدية المتأثرة بمظاهر البيئة الأندلسية حيث ربط بين ألفاظ الطبيعة وبهائها وجمالها ، وبين الأدب الذي يروم وصفه ، فقد أسبغ على بعض نماذجه الأدبية أوصافاً استمدها من عناصر الجمال في ذلك الإقليم ، كما في وصفه لأدب السلطان المتوكل الذي يقول فيه: " وله نثر تسري فيه رقة النسيم ، ونظم يزري بالدرِّ النظيم ، مع جود وكرم وخيم "(٤٧).

ويطَّرد استعمال الناقد لمفهوم انتظام الألفاظ في الشعر بالقلائد ، ومن أوضح النماذج على ذلك تعليقه على بعض الأبيات الشعرية جاء فيه : " وهذا البيت من غرر قلائده (٤٨).

ويورد له تعليقاً يبدو أنَّه مألوف في ميدانه ، حيث وصف شعر ذي الوزارتين أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج بقوله: " وله شعر أعذب من الجريال في صحن الخد ، وأطيب من الوصال بعد الصدِّ " (٤٩)

وهكذا يستطرد ابن دحية بذكر المصطلحات الخاصة بالألفاظ : كالبراعة ، والعذوبة ، و الرقة ، والحلاوة ، و اللطافة ، والجزالة ، و الغرابة ، و النظم و السبك وغير ذلك ، وقد حذا المقَّري حذوه في النفح (٥٠) .

وبعد أنْ فرغنا من قضية اللفظ و المعنى ، فلا بدَّ أن نعرَّج على مواقفه البلاغية ، ولو أنَّنا قد ألممنا بشيء يسير منها ، إذ ورد منثوراً في ثنايا تعاليقة السابقة ، ومرتبطاً بها ، ومتعلقاً بالنصوص ، وقد آن الأوان للحديث عن هذه القضايا البلاغية التي تعرَّض لها .

النقد البلاغي :

يمثل هذا الموضوع أحد المحاور التي دار حولها نقد ابن دحية ، ومن أبرز أركانه :

التشبيه ، و الاستعارة ، و التورية ، و الغلو ، و الإيغال في رسم الصورة ، و التبديل ، وغير ذلك ، وقد عنى النقاد القدماء بهذه المباحث كأبي عمر بن العلاء ، و الأصمعي ، و المبرد ، وعبدالقاهر الجرجاني ،

و الرازي، و القزويني، و السكاكي، وغيرهم . فقد كانوا مولعين بالتشبيهات العقم ، التي انفرد بها أصحابها ولم يشركهم فيها غيرهم ، وهي أبيات معدودة ، كقول عنترة في تشبيه حنك الغراب بالجلمين[٥١].

حَرقُ الجَنَاح كأنَّ لَحْيَيْ رأسهِ جَلَمان بالأخبار هشٌ مُوْلَعُ

و بالنظر لأهمية التشبيه في بناء الصورة الفنية في الشعر ، فقد كثرت فيه المؤلفات مثل : (كتاب التشبيهات) لابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ) ، وكتاب (روائع التوجيهات من بدائع التشبيهات) لأبي سعد نصر بن يعقوب [٥٢] . وفي الأندلس ألّف ابن الكتاني كتابه المشهور (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) ، وهكذا توالت المؤلّفات على هذا المنوال ككتاب (غرائب التشبيهات) لابن ظافر الأزدي (ت ٦٢٧هـ) .

لم يتحدث ابن دحية عن التشبيه حديثاً علمياً من حيث أغراضه وأنواعه ، كما فعل المبرد وعبدالقاهر و الرازي ، بل قصر اهتمامه على تشبيهات الأندلسيين الرائعة ، ولهذا فقد كان لتعليقاته النقدية أهمية كبيرة ، لاتسامها بالجدة والطرافة ، ويبدو أن شغفة بالصور الشعرية المبتكرة حفَّزه على الإشارة إلى التشبيهات المبتدعة ، وممن وقعت عندهم تشبيهات مليحة ، ومحاكاة بارعة هو أبو حفص أحمد بن برد مولي أبي عامر بن شهيد ، كان مبدعاً في التشبيه و التمثيل ، وبارعاً في المحاكاة و التخييل، من بيت جليل [٥٣] . وقد أورد ابن دحية له شعراً غريب التشبيه قال فيه : وله في النرجس وأهل الأندلس يسمُونه البهار ، واسمه في اللغة العبهر :

تنَّبهْ فقدْ شَقَّ البَهارُ مُغَلِّساً كمائِمَةٌ عن نَوْرِهِ الخضِلِ النَّدي

مَداهنُ تِبْرٍ في أنامِلِ فضَّةٍ على أذْرُعٍ مَخْرُوْطَةٍ من زَبَرْجَدِ

علّق ابن دحية على هذين البيتين بقوله : " وهذا من مليح التشبيهات في النرجس وبديعها وغريبها وصنيعها . وأكثر ما تواردت خواطر الشعراء على تشبيهه بالعيون المراض ، كما ذكر قول أبي عبدالله بن الحسن الكاتب من شعراء جزيرة صقلّية :

بخـــدِّكَ آسٌ وتفَّاحـــة وعينُكَ نَرجِسَـــــةٌ ذابلَـــهْ

وهكذا يستقصي ابن دحية أكثر ما قاله أهل عصره في هذا المعنى معلقاً على هذه النماذج كشعر بعض أهل دهره من غير الإشارة إلى اسمه:

غَزَالٌ لَهُ في كُلِّ عُضْوٍ مَحَاسنٌ يَقومُ لخَلاَّع العذَارِ بهِ العُذْرُ

فوَجْنَتُهُ وردٌ وعيناهُ نرجـسٌ وَمَبْسِمُهُ كأسٌ وريقَتهُ خَمْرُ

لقد رصد ابن دحية ما في هذين البيتين من تشبيه غريب وغير مناسب ، فبيَّن سبب رفضه له ، وذكر ما بهما من تباين بين المتضادات ، فحصل له عدم ائتلاف بين المشبه و المشبه به ، وهو يعوِّل في ذلك على ثقافته النقدية العامة ولنستمع إلى قوله: " وهذا تشبيه غير أنيق ، إذا حكَّ بمحك التحقيق ، لأنَّ بين نرجس الحدائق والحداق ، الموصوفة بالدعج وتكحيل الآماق ، من التباين ما بين الأضداد ، وليس يحسن أنْ تحل الصفرة في موضع السواد ، فتشبيهه بعيون الهرر أولى من تشبيه بعيون الناس في حكم القياس ، وإنَّما حسن تشبيهه الخدود بالورد من هذا النمط ، فأنَّها تشبهها في تضرُّجها بالحمرة ، ونعومتها ونداها ونضرتها . وكذلك تشبيه الأقاح بالثغور ، و الأقاح : جمع الأقحوان ، لأنَّ له ورقا أبيض يشبَّه الثغر به ، وقد لاحظنا في هذا المعنى ما لم نعلم أحداً مِمِنْ عُنِي بنقد الشعر قبلنا لاحظه ، ولا كشف قناع معناه (٥٤) وعلى الرغم من ادعاء ابن دحية أحقية هذه الفكرة ، وإشارته إلى أنَّه لم يعرف أحداً قبله لاحظ مثل هذا النقد ، أودُّ أنْ أبين أن الحريري (ت٥١٢هـ) أنشد بيتاً لم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، وهو قول الشاعر :

فأمْطَرَتْ لُؤلُؤاً منْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنَّاب بالبَرَدِ

جاء في شرح مقامات الحريري البصري للإمام الأديب أبي العباس أحمد بن عبدالمؤمن القيسي الشريشي ، " أنَّ النرجس : نوار أصفر في نوره انكسار وفتور ، لايكاد يرى له ورقة قائمة تشبَّه به العينان ، إذا كان في نظرهما فتور ، وقد تمادى إنكار ادباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوَّار الأصفر ، المعروف عندنا بالنرجس ، فأكثرهم ينكر أنْ يقع به تشبيه لأجل صفرته ، وإنْ ذكرته لأحد قال : وأي صفرة في العين إلاَّ أنْ يكون بصاحبها علة اليرقان ، ويستهجن موضع التشبيه جداً ، وقد سألت عنه بعض أشياخي في صغري وأنا أقرأ كتاب الجمل وكان أديباً شاعراً ، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النور الأصفر لأجل لونه ؛ وذلك لقلة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبياتهم على الصورة دون المعنى ، أو على المعنى دون الصورة ، و عليهما جميعاً ، وهو أكمل وجوه التشبيه" (٥٥) . فواضح من هذا النص وهو سابق على كلام ابن دحية ، ان يدَّعي ناقدنا أنه أبو عذرته ، ومن هنا يمكن القول : أن ابن دحية لم يطلع على شرح الشريشي ، أو لأنه تغاضى عنه عمداً لكي يدعيه لنفسه ، خصوصاً وقد علمنا من اقوال معاصريه : إنه دعيٌّ ، ومطعونٌ في عمليته . لقد تبين من خلال هذه النماذج التي أوردها ، وعلق عليها انه ليس سابقاً في هذا الميدان ولكنه مع ذلك ، نبَّه إلى هذا التناقض، مما دفعه إلى أنْ يسجل انطباعه عنه ، بعد أنْ وجده يخالف القياس ، و لا ينسجم مع ما تعارف عليه العرب في تشبيهاتهم النقدية ، فهو في حكمه هذا لا يخرج عن الذوق العام ، والطبع الفني الأصيل ، في كشفه عن حالات التباعد بين المشبه و

المشبه به ، إذْ " إنَّ المتشابهين متى كانت المباعدة بينهما أتم ، كان التشبيه أحسن ، فتشبيه العين بالنرجس عامي مشترك ، والبعد بينهما أقل من البعد بين الثريا وعنقود الكرم ....، لأنَّ مبنى الطباع على أنَّ الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، كان شغف النفوس به أكثر [٥٦].

وخلاصة القول في هذا الميدان أنَّ ابن دحية قدَّم لنا نماذج رائعة من أشعار أهل الأندلس ، محكماً فيها ذوقه ، فجاءت تعليقاته غاية في الطرافة .

التوريــة :

لقد كان ابن دحية مولعاً بالتورية المليحة التي وردت في النماذج الشعرية التي أشار إليها ، بيد أنَّه لم يعالج هذا الفن معالجة بلاغية ، بل اكتفى بإظهار إعجابه واستحسانه لها في المواضع التي استعملها الشعراء ، فقد ذكر البيت الذي وطأ به الشاعر نوعاً من أنواع البديع يسمَّى التورية وهو قوله:

لهم رياضُ حتوفٍ فالذبابُ بها يَشْدُوهُمُ في الهوادِي كُلَّما اقْتَحَمُوا

فقال بعد ذلك : " الذباب من الحيوان معروف ، و الذباب : ذباب السيوف ، والشدو : الغناء ، فشبَّه طنين الذباب في الهوادي ، وهي الأعناق بترنُّم الذباب ، استعارة الرياض للحتوف توطئة لشدو الذباب ؛ لأنَّ الرياض الملتفة الأشجار ، موضع ترنُّم سواجع الأطيار" [٥٧] .

ومن النماذج المهمة الأخرى التي ذكرها ابن دحية أبيات للمعتضد بن عباد ، يخاطب الملك أبا الجيش مجاهد بن عبدالله ، صاحب الجزائر ومدينة دانية ، ويقال إنها من أبيات لكاتبه ذي المعارف والفنون أبي الوليد بن زيدون :

خَلِّي أبا الجيش هل يُقْضَي اللقاءُ لنا فَيَشْتَفِي منكَ طَرْفٌ أنْتَ ناظِرُهُ

شَطَّ المَزَارُ بنا و الدَّارُ دانيـــــةٌ يَا حَبَّذا الفألُ لوصَحَّتْ زَوَاجِرُهُ

قال ذو النسبين : معلقاً على مافي هذين البيتين من تورية ، وهي قوله : (والدار دانية) من مليح التورية ، وهي ضرب من صنعة البديع . ودانية: مدينة كبيرة بشرق الأندلس : وهي مشتقة من دنا يدنو إذ قرب[٥٨] ،هذا وله إشارات اخرى في التورية [٥٩] .

التقسيــم :

لقد رصد ابن دحية في كتابه المطرب أغلب الأشعار التي تتضمن أي نوع من أنواع البديع ، فيشير إليه ، ويكشف ما فيه من ملاحة وبداعة ، دون أنْ يعرِّف به ، وذلك لأنَّه خارج عن منهجه ، فليست غايته

في المطرب شرح المباحث البلاغية ، بقدر ما يورد الأمثلة ، ويعلق عليها ، حيث يقول: ولأبي الحسن بن الزَّقَّاق أيضاً ، وهو في الرقة يمتزج بالنسيم ، ويعد في أنواع البديع من نوع مليح التقسيم [٦٠]:

تَضَوَّعْنَ أنْفاسَاً وأشْرَقْنَ أوْجُهَاً فَهُنَّ مُنيراتُ الصِفاح بَوَاسِمُ

لَئِنْ كُنَّ زُهْرَاً فالجَوانِحُ لأبْــرُجٌ وإنْ كُنَّ زَهْرَاً فالقُلوبُ كمائِمُ

هذا وقد سماه صاحب العمدة (بالترصيع) ، إذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعاً ، أو شبيهاً بالمسجوع ، أو من جنس واحد في التصريف [٦١] .

الغلــو:

لم يرض ابن دحية الغلو مذهباً ، ولا اتخذه مركباً ، بل استهجنه في الأشعار ورفضه منطلقاً من مبدأ ديني أخلاقي ، لهذا فقد كانت نظرته مخالفة لما كان يراه قدامة بن جعفر في مذهبه إلى الغلو وهو (أحسن الشعر أكذبه) ، كما جاء في تعليقه على قول المعتمد في السلطان عباد أبيه من قصيدة يمدحه فها:

سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الآلافَ مُبتدئاً ويستقلُّ عطاياهُ ويعتــذرُ

له يدٌ كُلُّ جبارٍ يُقَبِّلُهَــــا لو لا نَداها لَقُلْنَا إنَّها الحَجَرُ

لم يرض ابن دحية على هذه المبالغة من المعتمد ، إذ بلغت حدَّ الغلو الذي لا يستحسن التشبيه ، من حيث مقارنة يد المعتضد بالحجر الشريف ، لقد بين الناقد الفرق بين الحجر الأسود و يد الممدوح ، فالناقد ينطلق من موقف ديني وأخلاقي ، فضلاً عن ذلك ، يقول ابن دحية بتفسيره بعض المفردات ، ولنستمع إلى تعليقه إذ يقول: " يريد الحجر الأسود ، يجب تقبيله على جميع الطائفين بالمسجد الحرام ، على ما ثبت عن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام ، و السميدع (بفتح السين) في لغة العرب : السيد. فضل يده على الحجر بما خصَّت به من الندى وكثرة الجدى ، ففضل يد الممدوح على الحجر الأسود ، وهذا من باب غلو الشعراء ، وإيغالهم فيما ينمقون من زخارف أقوالهم . فشتان بين يديه وبين الحجر الأسود في الممات و المحيا ، لأنَّه يشهد يوم القيامة لمن استلمه في الدنيا ، وينال عند الله جلَّ جلاله المنزلة العليا " [٦٢] .

ولعل في هذا التعليق الذي أورده ابن دحية ما يؤكد نزعته الأخلاقية وعقيدته الدينية ، وعلى الرغم من موقفه الرافض للغلُو، إلاَّ أنَّه لم يقف حائلاً دون إبداء إعجابه بشعر الشاعر ، وانْ كان مغالياً ، فيقول : ومن المتقدمين من شعراء الأندلس و المغرب أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي الدار ، وانْ كان قبيح الغلو شهير الاستهتار ، فربما صدرت عنه درر تلحقه بالشعراء الكبار:

فُتقتْ لكمْ ريحُ الجِلاد بعَنْبَرِ وأمدَّكم فَلَقُ الصباح المُسْفِـــرِ
وَجَنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقَائِعِ يانِعــاً بالنَّصْرِ من وَرَق الحديدِ الأخْضَرِ

قال ذو النسبين : صلى الله عليه وسلم الله عنه ، هذا بيت بديع ، زاد فيه قول البحتري:

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ القديمةُ ثِقْلَهُ من عَهْدِ عادٍ غضَّةً لم تَذْبُـــلِ

والناقد وأنْ استجاد هذين البيتين واستحسن منهما بيتاً بديعاً كما وصفه ، لكنَّه في الوقت ذاته ، لا تروقه أشعاره الأخرى ، فعلى الرغم من إعجابه بقصيدته التي يقول بحقِّها ومن مليحها قوله :

يقولون حِقْفٌ فوقه خَيْزُرَانَةٌ أما يَعْرِفونَ الخَيْزُرَانةَ والحِقْفــاً

وهكذا يستمر الشاعر في قصيدته حتى يأتي على آخرها وهو :

كأنَّ لواءَ الشمسِ غُرَّةُ جعفرٍ رأى القِرْنَ فازدَادَتْ طلاقَتُهُ ضِعْفَا

إلاَّ أنَّه يعلِّق على القسم الآخر من شعر الشاعر قائلاً :" وبقية شعر هذا الرجل قعاقع وجعاجع ، وثالثة الأثافي و الرسوم البلاقع " (٦٣). غير انَّ ابن دحية كان ، بلا شك ، قد حذا حذو أبي العلاء المعرَّي الذي وصف شعر ابن هاني بقوله:"ما أشبهه إلاَّ برحى تطحن قروناً" (٦٤) .

ومهما يكن من أمر ، فأنَّ هذه الأحكام لا يمكن أنْ تصدق على جميع شعر الشاعر ، ولهذا لم يمكن ابن دحية سديد الرأي في حكمه ، و بالتأكيد فأنَّه كان متأثراً بأبي العلاء المعرِّى ؛ لأنَّ معنى الكلام واحد . هذا وقد أنصفه د.أحمد هيكل في دفاعه عنه (٦٥).

ولعل سبب هذه الوعورة في شعره مردُّها إلى تأثره بأبي الطِّيب ، وليس أدل على ذلك من أنَّ أهل الأندلس كانوا يلقبونه (بمتنبي المغرب) . ولهذا إذا كان الشاعر مغاليا في المدح و الهجاء ، فإنَّه يشير إليه ، وينبِّه عليه ، من دون أنْ يورد لنا أبياتاً نستدلُّ بها على غلوه ، ومن أوضح النماذج على ذلك ما جاء في ترجمة أبي عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبُّوس يقول ابن دحية عنه : " ومنهم شاعر المغرب الأقصى ، ومفخره في صناعة المحاكاة والتخييل ، وأنَّ له غلواً في الأمداح وإفراطا في الاقتراح ، فربَّما ثنى عنانه إلى مدح اللطيف الخبير ، ورَّوى ظمأه ذلك العذب النمير" (٦٦) .

من هنا يمكن أن يقال : إنَّ ابن دحية كان خاضعاً لمبادئه الأخلاقية ومواقفه الدينية من الغلو ، فيرى أنَّ الشاعر وإنْ صدرت عنه أشعار يغالي في المدح و الهجاء المقذع بشكل مسرف ، فلا يمنع من أن يمدح الله تعالى بما يبلُّ صداه ، ويروي غلَّته .

الهوامــش

١. أنظر ترجمته في وفيات الأعيان ، ٣ : ٤٤٨ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥- ٦٠ ، مرآة الجنان ٤ : ٨٤، ميزان اعتدال ٣: ١٨٦ . تذكرة الحفاظ ٢- ١٤٢٠، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٩٦ صلة الصلة ت ١٣٢ : ٧٣ .

٢. الروض المعطار في خبر الأقطار : ٩٧ .

٣. النجوم الزاهرة ٦ : ٢٩٦

٤. نفح الطيب : ٢: ٣٠٥.

٥. الأعلام ٥ : ٤٤ .

٦. تذكرة الحفاظ ٢ : ١٤٢٠ ، ميزان الاعتدال ٣ : ١٨٦- ١٨٧ .

٧. مرآة الجنـان ٤ : ٨٤ .

٨. صلة الصـلة ت ١٣٢: ٧٣ .

٩. وفيات الأعيان ٣: ٤٤٩ .

١٠. أنظر مقدمة المطرب الصفحة (و) .

١١. الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ : ٢٤٩ ــ ٢٥١.

١٢. مقدمة المطرب ص : ز .

١٣. تذكرة الحفاظ ٢ : ١٤٢٢.

١٤. ميزان الاعتدال ٣ : ١٨٦.

١٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ : ١٦٠.

١٦. الأعلام ٥ : ٤٤.

١٧. وفيات الأعيان ٣ : ٤٤٨ ــ ٤٥٠.

١٨. صلة الصلة ت ٧٣- ١٣٢.

١٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ : ١٦٠.

٢٠. ميزان الاعتدال ٣ : ١٨٧ ــ ١٨٩ . تذكرة الحفاظ ١٤٢١- ١٤٢٢.

٢١. وفيات الأعيان ٣: ٤٤٨ ــ ٤٥٠.

٢٢. صلة الصلة ت ١٣٢ : ٧٣.

٢٣. المطرب من أشعار أهل المغرب : ٢.
٢٤. المصدر نفسه : ٢.
٢٥. المصدر نفسه : ٢.
٢٦. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١ : م١ : ٤٢٩.
٢٧. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان٢ : ٢٤٥ . يقارن ذلك بما جاء في المطرب :١٦٤.
٢٨. الشعر والشعراء : ١٢- ١٥.
٢٩. الكامل في اللغة والأدب: ١: ٢٧- ٢٨. أنظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٩٤ .
٣٠. عيار الشعراء ١١ ، ١٢١ .
٣١. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١: ١٢٤.
٣٢. كتاب الصناعتين : ٥٤ .
٣٣. المطرب : ١٥.
٣٤. المطرب ١٣٧- ١٣٨.
٣٥. المصدر نفسه : ١٣٩ ــ ١٤٠ .
٣٦. المصدر نفسه : ١٤٩- ١٥٠.
٣٧. المصدر نفسه : ٧٦ .
٣٨. المصدر نفسه : ٥٤ .
٣٩. الإمتاع والمؤانسة : ١: ١٣٤ ــ ١٣٥ .
٤٠. المطرب : ١٠.
٤١. المصدر نفسه : ١٧ .
٤٢. المصدر نفسه : ١٩ .
٤٣. المصدر نفسه : ٤٦- ٤٧ .
٤٤. المصدر نفسه : ٤١ .
٤٥. المصدر نفسه : ٧٢ .
٤٦. المصدر نفسه : ٢٠١ .
٤٧. المصدر نفسـه : ٢٢ .

٤٨. المصدر نفسه : ٥٨.
٤٩. المصدر نفسه : ١٧٥.
٥٠. النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب : ٢٩٦ ومابعدها .
٥١. العمدة : ٢٩٦:١-٢٩٧ ، الحيوان ٣٤:١.
٥٢. يتيمة الدهر : ٤٤٩:٤-٤٥٠ .
٥٣. المطرب ، ١٢٧ .
٥٤. المصدر نفسه ، ١٢٧-١٨٢.
٥٥. شرح مقامات الحريري للشريشي .
٥٦. نهاية الإيجاز : ٧٦.
٥٧. المطرب ٥٦-٥٧.
٥٨. المصدر نفسه : ١٣.
٥٩. المصدر نفسه : ١٠٨.
٦٠. المصدر نفسه : ١٠٨.
٦١. العمدة ، ٢٦:٢ انظر الشعر والشعراء ٤٠ وما بعدها .
٦٢. المطرب ١٥-١٦
٦٣. المطرب : ١٩٣-١٩٥.
٦٤. وفيات الأعيان : ج ٥: ٢.
٦٥. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ٢٤٠.
٦٦. المطرب ١٩٩.

المصادر والمراجع

١- ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٢- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٣٦م .

٣- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي الإشبيلي ، قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش ، الطبعة الأولى ، مكتبة المنار للطباعة و النشر ٢٩٨٩م .

٤- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٠م .

٥- ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد الطبعة الرابعة ، دار الجيل للنشر و التوزيع و الطباعة ، بيروت ، ١٩٧٢م.

٦- ابن الزبير ، أبو جعفر ، صلة الصلة ، تحقيق ، إ. ليفي بروفنسال ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٣٧م .

٧- ابن سعد ، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري ، الطبقات الكبرى ، مطبعة الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

٨- ابن طباطبا ، محمد بن أحمد العلوي ، عيار الشعر ، تحقيق وتعليق طه الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٩- ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم الدينوري ، الشعر والشعراء ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩م .

١٠- أبو حيان التوحيدي ، علي بن محمد بن العباس ،(٤٠٠ هـ) الإمتاع و المؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد امين ، وأحمد الزين ، المكتبة العصرية ، الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩م.

١١- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٦.

١٢- أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي (٧٤٨هـ) ، ١- تذكرة الحفاظ ، الطبعة الرابعة ، وزارة المعارف ، الهند ، بلا تاريخ . ٢- ميزان الاعتدال ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، بلا تاريخ.

١٣- أبو عثمان ، عمر بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، الجزء الأول ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

١٤- أبو الفلاح ، عبدالحي بن العماد الحنبلي ، (١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة المقدسي ، ١٣٥١هـ.

١٥- أبو محمد ، عبدالله بن أسعد ، (ت ٧٦٨هـ) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، مطبعة دار المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، (١٣٣٩هـ) .

١٦- أبو منصور ، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

١٧- أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل ، كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢م .

١٨- خير الدين الزركلي ، الأعلام، الطبعة الثامنة ، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨٩م.

١٩- طه أحمد إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ، المكتبةالعربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

٢٠- محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار القلم للطباعة ، بيروت ، ١٩٧٥م .

٢١- هدى شوكت بهنام ، النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب ، الطبعة الثانية ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٤م .